شرق الاردن.. غرب الشام

(٢٠٢)

دمشق.. المدينة التي حافظت على ماضيها العريق

في (السيدة زينب) تجد روح العراق

كتابة / صافي الياسري
ثريا البرزنجي

مازلنا في الاردن حتى يوم ٨/١٩ ، وقد أخذت على عاتقي مهمة استكشاف اوضاع العراقيين هنا من خلال الصحافة ومكاتب العمل ومصادر اخرى. فبعد سقوط النظام العراقي وصلت إلى الاردن الاف العوائل العراقية التي ينتمي اربابها إلى الخطوط الامامية من حزب البعث وأجهزة المخابرات والحلقات العليا في ادارات الوزارات ، ويقال ان بعضهم حصل على الجنسية الاردنية بعد ان دفعوا مبالغ ضخمة لقاء ذلك.

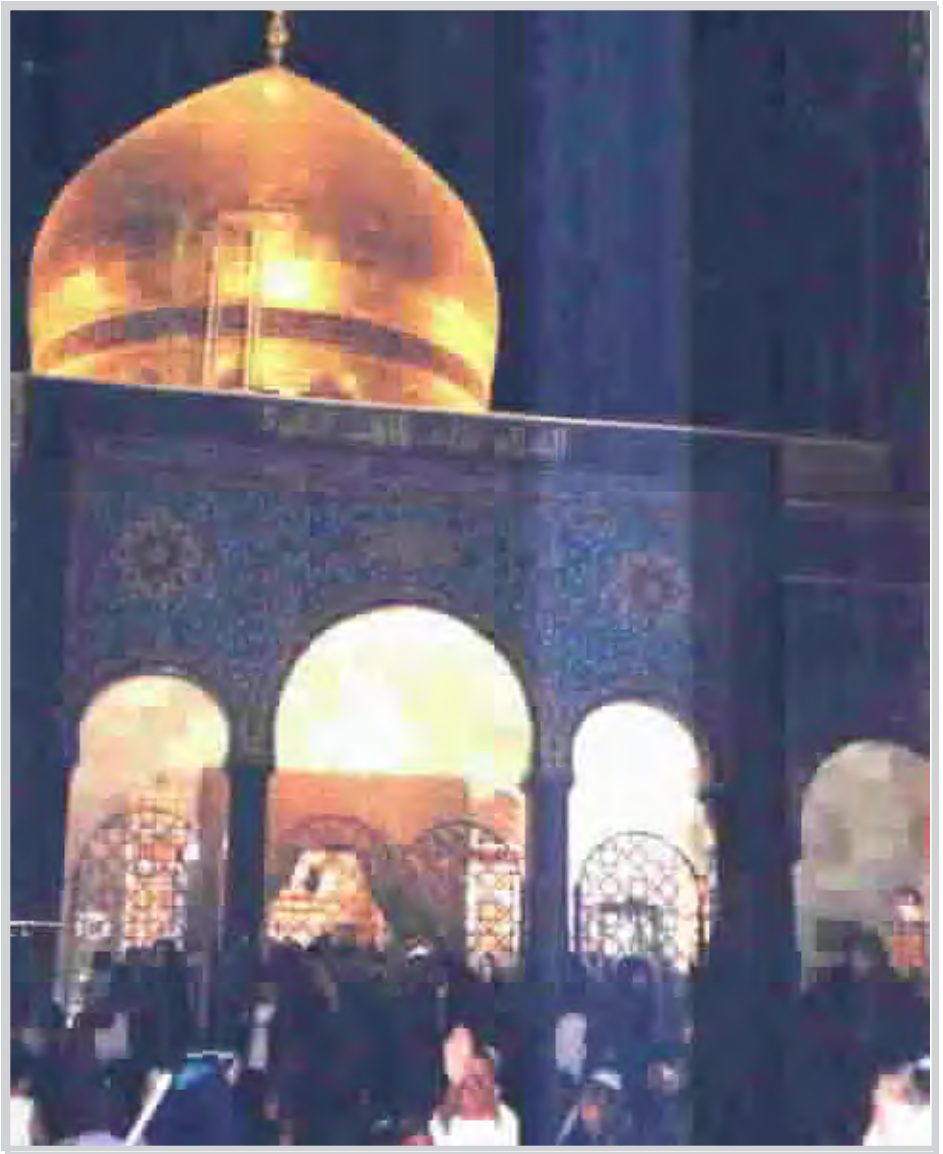

ازاء ذلك قصدت الاردن وسوريا مئات العوائل المسيحية التي اجبرتها موجة استهداف المسيحيين العام الماضي على مغادرة العراق والانتظار في سوريا والأردن لحين الحصول على الموافقات اللازمة للاقامة في الدول الاوربية واميركا واستراليا أو الاستقرار في سوريا أو الاردن.

أما هذا العام فقد نشرت صحيفة "الرأي العام" الاردنية احصائية بالعراقيين الداخلين إلى الاردن خلال شهري تموز وآب، وقد بلغ الرقم (٧٥٠) الف عراقي، و يعزو الجميع هذا الرقم المرتفع إلى تفاقم تردي الوضع الأمني في العراق واستهداف الاطباء والمهندسين مما دفع الجميع إلى عمان التي اصبحت جزيرة الاستقرار بالنسبة لهم.

ويمكنك ملاحظة الشعار الذي رفعته الدولة الأردنية على محطات توقف السيارات ومكانات اخرى والذي يقول استثمر بامان في مملكة الأمان. والاقامة في الاردن . كما فهمنا . يستلزمك الآن كعراقي مبلغاً قدره ٧٥ ألف دولار، في الاقل، خمسون منها ضمانة تودع في البنك، والباقي للعمل، وقد فضل العراقيون العمل في ميدان العقارات، ومن فعل ذلك منهم.. هم من اصحاب رؤوس الاموال الذين استغلوا غياب القانون فهربوا بأموالهم إلى الاردن.

أما اصحاب الخبرة العالية كالأطباء والمهندسين فقد منحتهم الاردن وضعاً خاصاً، وما رأيك سيدي العراقي . سلمك الله . ان يعالجك طبيب عراقي ولكن في عمان، على ان تدفع ثمن قطرة الماء بالعملة الصعبة وهناك مجاميع (العمالة) الرخيصة للبناء والحرف الأخرى.

. الرحيل إلى دمشق .

خطفت زميلتي (البرزنجي) حقيبتها الثقيلة بعد ان ملأتها (بالهدايا) العمانية وودعنا ريجنسي بالاس إلى دمشق وهذه المرة لم نكن مرتبطين بجهة رسمية أو مؤتمر، حجزنا لدى احدى شركات النقل.. التي لعبت هي الأخرى لعبة السبت والخميس، فللخميس به هناك سعر، وللسبت سعر آخر، ومن المؤكد اننا دفعنا السعر الأعلى، وكنا نظن ان (السائق) . سيشغل التبريد . منذ اللحظة الأولى لصعودنا سيارته، لكننا حتى بعد الجدل لم نتمكن من شم هواء المكيف حتى دخلنا سوريا، والسر عند المعلم مصطفى الذي اوصلنا إلى مكتب لتأجير الشقق بدلاً من . الكراج .

وهنا بدأت المساومة على تأجير شقة بغرفتين، وفهمنا اننا هنا (منصوب علينا) حتماً ما لم نغادر المكتب، سحبتني من يدي زميلتي وسحبت ولدها وغادرنا بعد ان وصل خط تخفيض الايجار حده الادنى (٧٠ دولاراً) لليلة الواحدة.

. سائق التاكسي الذي استأجرناه لايصالنا إلى حي (السيدة زينب) عرض علينا شقة مفروشة بـ (١٠٠٠ ليرة) أي ما يعادل ٢٠ دولاراً فوافقنا على الفور، .عرفنا فيما بعد اننا كنا مغلوبين، ولكن.. هذا هو الحال..

. حي السيدة زينب .

. لم تكن درجات الحرارة في دمشق أكثر انخفاضا منها في عمان.. ولن تشعر بكبير فارق بينها وبين بغداد في النهار، لكنها تغير جلدها ليلاً، فتكون أكثر برداً ونعومة حتى اني لم اشعر بالحاجة إلى (مروحة) في غرفتي، ونحن هنا في (حي السيدة زينب) نعد في (أرياف) دمشق وهذا يعني ان (سائق التاكسي) يفرض علينا اجراً اعلى مما يحسبه العداد بحسب تعريفة خاصة (بالأرياف) ولهذا قررنا استخدام (السيرفس) أو (الكيا) واجرتها خمس ليرات للفرد الواحد وصولاً إلى دمشق أي ما يعادل ١٥٠ ديناراً عراقياً، وهو كما نلاحظ أجر بخس في بلد غير (بترولي) فابسط اجرة تدفعها في بغداد بين . الكاظمية والعلاوي . هي ٥٠٠ دينار، ونحن من المحسوبين على البلدان البترولية (والنعم!).

وحي السيدة مكتظ بالسكان ولا تهدأ الحركة فيه ٢٤ ساعة في اليوم . يقول صاحب مطعم الابرار . انه حين جاء إلى دمشق اوائل السبعينات لم يكن يسكنها من العراقيين الا افراد يعدون على الاصابع، ولكن حملة التسفيرات التي قام بها النظام المباد ضد العراقيين الذين لم يكونوا من التبعية العثمانية، اسفرت عن تواجد عراقي كثيف تركز حول مقام السيدة زينب.

وخلال أكثر من ثلاثين عاماً استقر أكثر من نصف مليون عراقي في هذا الحي، وهم يعملون في شتى القطاعات الصناعية والتجارية. وعرض علينا السيد محسن العوادي وهو الآخر من قدماء العراقيين الذين استوطنوا الحي، ويملك فيه محلاً لبيع الاقمشة . ان يتجول بنا في السوق واطراف الحي لمعرفة اوضاع العراقيين، فقبلنا شاكرين. فبدأت جولتنا من باب مقام السيدة إلى الشارع الرديف للشارع العام، ولن تشعر هنا انك غبت عن الكاظمية أو سامراء أو النجف أو كربلاء، فالاجواء نفسها والعطر والبخور العابق نفسه، والبضائع تكاد لا تختلف، وازياء النسوة والأطفال والرجال هي الأخرى لا تختلف، وكذلك اللهجة التي تشم فيها بقوة رائحة جنوب العراق.. ومدينة الصدر.

وقد ميزتها فوراً زميلتي البرزنجي فقالت انها تشعر انها تطوف على كلك في احد جداول العمارة أو انها تتسكع في احد ازقة الناصرية، فقلت لها.. انا وهذه اللهجة أليفان.. لكنك ميزتها فورا لانك كردية.. عندها ردت بكبرياء يليق بانثى جبلية . هذا امتياز افخر به.

هنا اشارت لي زميلتي إلى مخبز ينتج (الخبز العراقي) والى جواره بقال يعرض (البامياء الخضراء)، واقول الخضراء لاميزها عن (البامياء البنفسجية) السورية، ضحكت وانا اتذكر مكونات (التشريب) البغدادي، وبمجرد ان همست لزميلتي بكلمة (التشريب) دعانا السيد العوادي بكرم عراقي اصيل إلى وليمة تشريب في شقة الضيافة التي يمتلكها والتي اعدها خصيصاً لاستقبال ضيوفه، ويقول العوادي ان اغلبهم من العراق.. من معارفه واقاربه فضلا عن زبائنه الخاصين من الزوار الايرانيين.

القلم الان بيد زميلتي فقد اجرت حواراً نسوياً خاصاً مع عائلة السيد العوادي.

تقول السيدة أم علي مضيفتنا التي لم تنس شيئاً من محتويات المائدة العراقية لم تقدمه مع ارق عبارات الترحيب والابتسامات هي وبناتها واولادها، الذين تزدهي اللهجة العراقية الجنوبية على السنتهم برغم انهم ولدوا في الشام . نحن هنا.. في العراق.. خلقنا حولنا جواً عراقياً صرفاً.. طعامنا عراقي.. لهجتنا عراقية، لباسنا عراقي، مناسباتنا عاداتنا تقاليدنا.. لم نغادر تربة العراق روحاً وان غادرناها جسداً هرباً من بطش صدام، والمرأة هنا.. هي المرأة كما تعرفينها في بغداد والعمارة والبصرة، واذا أضفت لها هم (الغربة)، فنحن كنا نواسي انفسنا بقول الامام علي (ع) (الغنى في الغربة وطن) فقد فتحها الله في وجهنا، أما اليوم فتقول اخواتي العراقيات (الأمان في الغربة وطن) .. والله نحن نبكي كل يوم.. وكلما سمعنا بشهيد يسقط على ارض العراق.

. دمشق القديمة .

أقر للسوريين معترفاً بفضلهم في بقاء دمشق القديمة كما هي، أزقتها، حواريها، عبق التاريخ فيها. مدينة تجاوز عمرها الخمسة الاف عام.. أقدم مدينة مسكونة على الارض.. من أين اتجول بكم.. من باب توما.. وحصن الاتابكة.. أم من سوق الحميدية، وأعمدة ابولو، والجامع الأموي، وقصر العظم، وقبر صلاح الدين. تعالوا معي إلى شارع القباقبية.. أو إلى حي النقاشات خلف الجامع . والنقاشات . هن اللواتي امتهن النقش على اجساد النساء بالحناء. وقد انقرضت هذه المهنة في دمشق.

هنا ايضاً قبر معاوية الصغير، الخليفة الذي قتل بالسم بسبب ميوله العلوية، وقد اهتم بعضهم بمظهر القبر ونظافة المكان فيما حوله، على عكس يواجهك سائح اجنبي علامته الفارقة بنطلون الكاوبوي وكاميرا الفديو ديجتال من احدث موديل.. بينما ما زالت زميتلي البرزنجي متمسكة بكاميرتها الفوتوغرافية نوع كانون ولكن الحق حري ان يقال فانها قد التقطت بهذه الكاميرا صوراً فنية رائعة، لكن الصور التي التقطتها لمقام السيدة زينب ليست صالحة للنشر.. (تخطف الزميلة البرزنجي الورق مني وتكتب).

. نعم هي كذلك.. لأنك اخذتنا إلى المقام ليلاً..

. هذا صحيح.. ولكنك لا تختلفني عن بنات جنسك اللواتي اذا دخلن سوقاً نسين أنفسهن، فانفقت كل نهارنا في التسوق.

وفي الحقيقة كانت زميلتي محقة في تسوقها، فالاسعار الدمشقية قياساً إلى اسعار عمان، أثمان بخسة، وهي كذلك قياساً إلى اسعار بغداد، وتلك اهم عناصر اغواء السوق.

كنت اريد زيارة بعض معالم دمشق، وبضمنها مقبرة الغرباء، الا ان استعدادنا للمغادرة إلى اللاذقية ومصافحة مياه الأبيض المتوسط على حد تعبير مرافقنا الشاب علي تطلب منا العودة مبكراً إلى شقتنا.

. على ضفاف المتوسط .

هناك تفاصيل كثيرة اغفلناها في الحديث الدمشقي، ولكنني لم استطع تجاوز منظر "بردى" الذي يرثى له، فاتذكر بسخرية مرة ما قاله شوقي . سلام من صبا بردى ارق . واتساءل ما الذي سيقوله شوقي لو رأى بردى اليوم وقد تحول إلى . شطيط . بغداد القديمة، وصار مكباً للنفايات ومجرى للمياه الثقيلة؟

نودع دمشق باتجاه البحر، كان أمامنا خياران.. أما طرطوس أو اللاذقية، وقد قرر الرجال الاتجاه إلى اللاذقية، وهذه المرة سافرنا بالحافلة بحجز مسبق وما يثير الاعجاب في شركات النقل الشامية، هو التزامها بالمواعيد إلى حد الدقيقة.

الطريق إلى اللاذقية في اغلبه زراعي واينما التفت تجد امامك شجرة مثمرة أو ارضاً مزروعة ودرجات الحرارة تنخفض قليلاً .. قليلاً.

و.. برز البحر.. الذي دهش ولدي علي لمظهره، فلم يشاهد بحراً من قبل..

وهذا هو سر اصراري على ان نستأجر شقة على البحر.. وفتحت نوافذها وتنسمت بقوة هواء البحر الأبيض المتوسط.. ذهب الرجال للعوم، ووقفت على الساحل التقط لهم الصور بعد قليل كان الياسري يحدثني عن الروائي السوري حنا مينا ومدينته اللاذقية.. بينما كنت امنح عيني للبحر وصفائه وزرقته الباهرة..ولولا مناكدات زميلي لكانت هذه الجلسة من أروع الجلسات التي كنت احلم بها.

لسنا العراقيين الوحيدين هنا كما تصورت، فثمة عدة عوائل تسكن (الشاليهات) المجاورة، والعراقيون اليفون بطبيعتهم، وهكذا جمعتهم الغربة فتحلقوا حول بعضهم يتبادلون هموم العراق وهمومهم الشخصية.

جنة الله . كسب .

اخبرنا الاخوة السوريون من جيراننا.. ان علينا مشاهدة . كسب . فهي جنة الله على الأرض. وتقع إلى أقصى نقطة في الشمال الغربي السوري على الحدود التركية.

و (بالسرفس) أو (الكيات) انطلقنا إلى كسب عبر طريق جبلي ليس فيه بقعة لم ترتد ثوباً اخضر، والمدينة قرية أو ناحية، لكنها عامرة باحدث البنايات والقصور والعمارات، وشوارعها نظيفة وسكانها لطفاء إلى أبعد الحدود وأغلبهم من الأرمن الذين لا تبعد كنيستهم عن جامع المدينة أكثر من عشرة أمتار.

. طريق العودة .

مرة أخرى نواجه قلق المرور عبر الصحراء الغربية إلى بغداد فالأخبار سيئة على الحدود العراقية . السورية والقوات الاميركية تشن حملة دهم على محيط مدينة القائم وداخلها، ونحن في (التنف) كنا نسمع اصوات القذائف من جهة العراق، ننهي بسرعة معاملة مغادرة الارض السورية . بعد دفع المعلوم . ونتوجه إلى الوطن .. قبلة الروح والقلب.. زميلي الياسري يخفي قلقه عني خلف صحيفة دمشقية قديمة، والسائق يثرثر عن ليلته المزعجة التي بددها بانتظار فتح الحدود.. فقد وصلنا ليلاً وامضينا اكثر من عشر ساعات بانتظار فتح الحدود.